# الملكة شجرة الدر [1]

## ٥

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم ، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور فى المعسكر الإسلامى ، فقرروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين ، وزحفوا جنوباً نحو فارس كور [2] وسفنهم تسير بمحاذاتهم فى النيل ، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان ، فأخذ المسلمون فى الاستعداد للقتال .. ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فازعج الكافة لاقتراب الخطر ، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد ، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى . وفى أوائل رمضان ( ديسمبر سنة ١٢٤٩ ) وصل الفرنج إلى شرق المنصورة ، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم ( البحر الصغير ) . واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة وكانت فرق المسلمين ترابط إزاءها ، وكان معظم عسكر المسلمين فى شرق النيل ، وبعض الفرق ترابط فى البر الغربى . وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة فى البر والبحر ، وأخصها تبادل الرمى بالنبال والمجانيق ، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع سجالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى . وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب . وبذل الفرنج جهودا عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم ، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة ، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة ( النار اليونانية ) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً . وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ ( ابريل ١٩٤٦ ) .
(٢) هى فارسكور الحديثة .

هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيما فى الحروب الصليبية . واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة ، والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ولا يجدون سبيلا لاتقائها . وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخائض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثخن جراحاً وقُتل ، وتفرق فرسانه . وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تثخن فى المسلمين هنا وهنالك ، ووصلت طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة .

ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الحلقة » وهم مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج ، بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الدواية » (١) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديلة على بحر أشموم حيث بدءوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الاسلامية ، بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر . وكان يوماً مشهوداً .

---

(١) الدواية أو فرسان المعبد *The Templars* وهم من أشهر جماعات الفرسان الدينيه أيام الحروب الصليبية .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج فى القصر السلطانى ، ترقب مصاير المعركة . ولما قُتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة فى البداية على المسلمين ، لم يخبُ عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة . ولما زال الخطر ورُدَّ الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختر شجرة الدر قائداً جديداً للجيش بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ، ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه .

## ٦

ارتدت فلول الفرنج منهزمه عقب الموقعة ، فقصدت إلى مراكزها العامة والمسلمون فى أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك ، فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام .

وجمع الفرنج قواتهم فى تلك البقعة ، وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذى حاق بهم . وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج فى طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ؛ ووصل إلى الصالحية فى ١٦ ذى القعدة أى بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ، وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة استطالت زهاء ثلاثة أشهر ، ولكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة ، وأن تؤدى مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفى اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ودخل قصر أبيه ، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور . وكان حريًا أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات ، ولما يدين لها من فضل ترشيحه للملك وأخذ العهد له فى غيبته . ولكن توران شاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعة ، بل كان بالعكس يخشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها ، وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى بالقاهرة يهددها ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقدس خيفة بطشه وغدره [1] . وكان الملك المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم ، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح ، فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب ، وكانت المؤن تأتيهم فى السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة . فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات ، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ، فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول افرنجى جديد مشحون بالأقوات والمؤن ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دمياط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة ( مارس سنة ١٢٥٠ م ) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن ، وأخذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التى تطلقها حرّاقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد فى بؤسهم وكربهم ،

---

(١) النجوم الزاهرة ( عن ابن قزاوغلى ) ج ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٣ .

وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يابى الارتداد حتى غلب نصح امرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التى قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ . وهى أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج . فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالا نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفى مساء يوم الثلاثاء الثانى من محرم سنة ٦٤٨ هـ ( ١٥ ابريل سنة ١٢٥٠ م ) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم فى النيل قبالتهم ، ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ، وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذى أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردوهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى أحاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، ومزقوا شر تمزيق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع ، أو رى أفرنس[1] كما تسميه الرواية المصرية ، فى نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهنالك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ووضع القيد الحديدى فى يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى[2] . وفى بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معززاً مكرماً[3] . وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم توران شاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهنالك نصب

---

(١) رى أفرنس أو ريد افرنس هى مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا . ولم يفت الرواية الاسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج ومعنى ريد افرنس ملك إفرنس فى لغتهم معناها الملك » ( مفرج الكروب ) .

(٢) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح فى العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء فى رسالة السلطان إلى نائبه فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور فى تفصيل الموقعة ما يأتى : « نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ... فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس ( يريد ملك فرنسا ) إلى المنية وطلب الأمان فأمّناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته . »

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر الداهم كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى . ذلك أن الملك المعظم أسا السيرة كما قدمنا ، واصطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع فى مناصبهم رجالا من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته . وغضب المماليك البحرية لمناوأته إياهم وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ونكران فضلها فى ضبط المملكة والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ، وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم فى تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة فى المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم

(٦٤٨هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السماط فى خيمته، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه، فما كاد ينتهى الطعام، حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع، فوقع الهرج فى المخيم السلطانى وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتمى بأعلاه، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة دون أن يتحرك إنسان لنجدته، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحا، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره، وأجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هنالك ثلاثة أيام فى العراء ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم.

## ٧

وهكذا هلك الملك المعظم توران شاه فى غمرة دامية، فى عنفوانه، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع. وشاء القدر أن يختتم بموته ثبت ملوك بنى أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة.

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هى: من يخلف الملك القتيل على العرش؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة فى حل تلك المشكلة. وكانت شجرة الدر فى قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث، وكانت هذه المرأة الموهوبة التى أثبتت بخلالها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية.

أجل! كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة. ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى؟ لقد جلس فى العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات، وكانت منهن على الأقل واحدة شهيرة معروفة

تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروعة وهى كليوباطرة أو كلابطرة كما تسميها الرواية العربية [1] بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوعا ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهى جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة . ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل ! جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة ايرينى معاصرة الخليفة المهدى وولده هرون الرشيد ، وهى التى تعرفها الرواية الاسلامية باسم « رينى » والامبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . وكان مثل تيودورا بالأخص معروفا فى مصر ؛ فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمى سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ ( ١٠٥٥ م ) أيام الشدة العظمى يستمد منها القوت والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك تنصيب الملكات بدعة فى الدول العظيمة . فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة ؟

اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء البحرية [2] . وأخذت البيعة للملكة الجديدة فى اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين ، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً فى التاريخ الاسلامى . وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فانه لم يحدث قط فى أية مملكة مسلمة أن تولت الملك امرأة [3] وكذلك لم يجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن واصل فى « مفرج الكروب » ( مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢ ) .

(٣) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الامارات الهندية المسلمة فى ذلك هو مثل السلطانة رضية ملكة دهلى (دهلى) التى وليت الملك عقب مقتل أخيها فى أواسط القرن السادس الهجرى واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال ( راجع رحلات ابن بطوطة ـ مصر ـ ج ٢ ص ٢٢ ) . وظهرت أيضاً فى أوائل القرن السابع فى بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هى تركان خاتون والدة السلطان محمد بن تكش وكانت ذات سطوة وسلطان ( أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨ ) .

وكان للحادث أعظم وقع فى العالم الاسلامى، حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسى نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا[1]». ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين أيبك ليكون مقدما على المعسكر وليعاون شجرة الدر فى نفس الوقت على تصريف الشئون.

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم، وكانت يومئذ فى نحو الأربعين من عمرها تفيض قوة وعزماً، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا، وكان أول عهده بالوزارة، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة؛ فهى الملكة عصمة الدين شجرة الدر، وهى «الستر العالى» «والدة خليل» وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح. وكانت هذه علامتها على الأمور والمراسيم، ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل» ومثل «واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح». وكذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين[2]» وقد اعتقد العلامة الاستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدلى بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم[3] قبل أن تكون جارية للملك الصالح. ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال. وأكبر الظن أن كلمة «المستعصمية» التى أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضواءها تحت لواء الخليفة العباسى من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسى.

وكان أول ما عنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج

---

(١) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ وابن إياس ج ١ ص ٨٩. والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩.

(٢) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥.

(٣) وتوجد فى المتحف البريطانى قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار إليها وهى القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع *A History of Egypt*, by Lane Poole, p. 255, note).

وإجلائهم عن الأراضي المصرية ، فندبت الأمير حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون في ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقي الأمراء المأسورين معه لقاء فدية قدرها ثمانمائة الف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين ، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين ، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ، ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أي إلى أربعمائة الف دينار . وكانت مرجريت دي بروفانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ في دمياط تعاني آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط في الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه في المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دي جوانفيل وهو الذي ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائقة[1] . وغادر الفرنج أراضي مصر توًّا وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر في سفنهم إلى ثغر عكا وكان ذلك في شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحملة الصليبية العتيدة في الأراضي المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخي مرة أخرى فردت عادية الغزاة الصليبيين عن مصر وبلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الاسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التي سيرت لغزو مصر باسم الدين .

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق في تلك الموقعة أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس [2] إذا جئته ... مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح

---

(١) وقد وضعها دي جوانفيل De Joinville, *Histoire de St. Louis* (تاريخ القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : *Memoirs of the Crusades* .

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

أتيت مصر تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابا كم بذا راضياً ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

محمد عبد الله عنان

(للبحث بقية)